الوسطية والاعتدال في الفكر العربي
أنموذج أمين الريحاني (1876-1940)

للدكتور أنور الخطيب*

المقدمة: نُذُرٌ ملتهبةٌ زاخرةٌ في الأجواء الدولية... وشراراتٌ تصيب الهشيم العربي... ودخانُ الأقدار يتأرجح بين النور والنار... وفي الأفق سحائب صَلَفْ: كثير الرعود قليل الوعود... وبروقٌ وأعاصيرْ... وبين كلَّ خاطرة فِكرْ... أو نبضةِ قلبْ... أو طرفةِ عين... ترتجف الأبدانْ... وتجزع النفوسْ...

قطعان آدمية مُسيرة إلى مذبح الشهوات والطمع تتساءل عن يومها المشؤوم!... لقد حَوَّل العالم الغربي رواد الفكر الشرقي... ودعاة السلام... وأحباء الإنسانية إلى صانعي إرهاب وظلم واغل في دماء الإنسانية... لقد شوّهَ الغرب المادي صفاء النفسِ البشرية... واستغل العلم والثروة والقوة للقضاء على الإنسان خليفة الله في أرضه... عزاؤنا نحن المجمعيين أننا نكافح من أجل نشر الأخلاق الحميدة في جميع أنحاء المعمورة... وتدعيم الحياة الكريمة ونشرها بلغة عربية سليمة...

السلام السلام أنشودتنا... والوسطية الوسطية مذهبنا... والاعتدال الاعتدال شريعتنا... والحب الحب ديننا... والإنسانية طريقنا... والحرية الحرية هدفنا... والعربية العَرِبَة الخلاقة لغتنا...

بعد هذه المقدمة نستعرض ما قيل قبل ست عشرة ومئة سنة على لسان مراسل المجمع العلمي العربي بدمشق أمين الريحاني فيلسوف «الفريكة» في لبنان الشقيق.

---

* عضو المجمع.

أولًا: **وَقْعُ نبأِ المحاضرةِ في الجاليةِ السوريةْ**، **يروي أمين الريحاني ما يلي**:

ذاعَ الخبرُ في جاليتنا السورية، وأخذَ كلُّ رجلٍ يُفسرُ الموضوعَ ويستخرجُ النتائجْ، ويُقدِّر العواقبَ حَسَبَ إدراكهِ وهَواه....وقد اتفقَ هؤلاء المفسرونَ على شيءٍ واحدْ وهو: **أنيّ سأتعَرَّض للدِّينِ تعرضًا خبيثًا**، وهُمْ يَنْوون وَقْفي عن الخطابة لأنهم لم يألفوا حُريَّةَ الرأيِ أو الانتقادْ. **فعسى أن يصادفوا الفشل وخيبة الأمل لأنهم حكموا عليَّ قبل أن يسمعوا كلامي** وهذا ما يناقضُ العدلَ والذوقَ السليمْ....**ويتابعُ الريحاني ويقولْ:** قد يظنُّ البعضُ أن البحثَ في الأمورِ الدينيةِ مُتَعلقٌ برجالِ الدِّينْ ومُحَرّمٌ على سواهم، **وهذا عينُ الضلالْ**. فالمرءُ لا يرى مساوئَ ذاتِهِ ولا ينتقدُ الحِرْفةَ التي يتوقفُ عليها معاشُهْ.

رؤساءُ الأديانِ لا يتكلمونَ عنِ الدينِ شيئًا مُشينًا على مسامعِ الشعبْ، ولو كان منافيًا للعدلِ والإصلاحْ، بلْ كلُّ مباحثهم وشعارهم هو **((الدينُ اعتناقُهُ واجبْ،.... وتعزيزُه أوجبْ،.... وإذا أفسدهُ الزمان فلا يُعلنُ الفسادُ للشعبْ....))**.

ولكنَّ الذي أوقعني في الاضطرابِ هو الطلبُ الذي طَلَبتْهُ مني عُمدةُ هذهِ الجمعية (جمعيةِ الشبانِ المارونيين) **كي أعدِلَ عنِ الخَطابةِ بهذا الموضوع تجنبًا للشَّرْ، وهربًا من العواقبِ الوخيمةْ....**

ماذا أفعلُ إذن؟... أأقتحمُ البحثَ والتنقيبْ،...أم أُسَلِّم تسليمًا غيرَ مشروطْ، دون أن أنبسَ ببنتِ شفةْ!... من وجهٍ أوَّل لا أريدُ أن أخونَ ضميري وأُعَوِّد نفسِي التردّدْ!... ومن وجهٍ آخر أوَدُّ لو راعيت خواطرَ أعضاءِ الجمعيةِ التي أنا عضوٌ فيها: فإن تكلمت استاؤوا،... وإنْ لم أتكلمْ استاءتِ الحقيقةْ وهذه هي الورطةْ...

الموقفُ يستوجبُ عُمقَ التبصُّرْ... إذْ كانتِ القاعةُ غاصةً برجالِ الحكومةِ وأصحابِ الجرائدِ والجواسيسْ، وكلُّهُمْ واقفينَ للخطيبِ بالمرصادْ يتوقعون منه كلمةً واحدةً تَنْتَقِدُ الجرائد أو المكتوبجي (رقيب الحكومة) لِيَشُوا بِهِ ويَسْعَوْا لِتوقيفهْ...

ويخاطبُ الريحاني نفسَهُ فيقولْ:

نحنُ في جمهوريةٍ عظيمةْ (الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةْ)، **يحقُّ لكلِّ مَن وطِئَ أرضَها المباركَة أن يتكلمَ بِحُريةٍ تامة، شرط ألّا يمسَّ حريةَ غيرِه**.

إن موضوعي يعودُ بأكبرِ الفوائدِ على السوريينِ في بلادِهِم وفي المَهاجر موضوعي "التساهلُ الديني" أتريدون أن أتكلم؟ فجاءَ الجوابُ مِنَ الجمهورْ ((تكلم!)) تكلمْ تكلم فسأتكلمُ وعلى الله الاتكالْ.

ثانيًا: **شرحُ موضوعِ التساهلْ**:

يقولُ الريحاني: موضوعي مُتشعبُ الطُّرقْ... جليلُ الشأنْ... جزيلُ الفائدةْ... ذو أهميةٍ بعيدةِ الأثرِ في المجتمع الإنسانيْ. هو الموضوعُ الذي اختلفَ فيه الناسُ **في العصورِ المتوسطةْ حين كان يدافِعُ عنه العلماءُ والفلاسفةُ والأحرارْ.... ومُعارضوه كلَّ المعارَضَة هم الرؤساءُ والأمراءُ والملوكْ**، وكلَّ من فضَّلَ قطعةَ معدنٍ تُدعى تاجًا على ذلك الشيءِ الإلهي الخفيِّ الذي يسمى ضميرًا. **يتابع الريحاني فيقول: التساهلُ هو التسامحُ بوجودِ ما يخالفُكْ وهذا تحديدٌ عام**...أما التحديدُ الذي يأتي

بالمراد: **التساهلِ الديني فَهُوَ الاعتبارُ والاحترامُ الواجبُ علينا إظهارُه نحوَ المذاهبِ المتمسِّكِ بها آخرونَ من أبناءِ جنسِنا ... ولو كانت هذه المذاهبُ مناقضةً لمذاهبِنا...**التساهلُ غيرُ مطلوب في الأمورِ الدينيةِ وحدَها... بل في كل الأمورِ التي تطرأُ على عقولِ البشرْ... ويعملُ بها الكبارُ والصغارْ...لا تَستطيعُ أن تَدخلَ هذا البابَ (بابَ التساهلْ) دونَ أنْ نَطْرُقَ بابًا آخر(بابَ التعصُّب).

ثالثاً: **شرحُ مفهومِ التعصبْ**:

التساهلُ نَجَمَ عنِ التعصبْ... وهاتانِ الكلمتانِ ضِدَّانْ... وهما من مَثنويات الطبيعة... كالنورِ والظلمةْ... والخيرِ والشر... والعدلِ والظلمْ،... (والحياةِ والموتْ...) فلولا أَحَدُهما ما كان الآخرْ... فالتعصب إذن وَلَدُ التساهلْ... والتساهلُ وَلَدُ السلامْ... والسلامُ وَلَدُ النجاحْ... والنجاحُ وَلَدُ السعادةْ..كل تعصّبٍ يَستوجبُ التساهلْ..... **فالتساهلُ هو الابنُ والتعصبُ هو الأبْ... وليس في العائلةِ البشريةِ بِرُمَّتِها أبٌ وابنٌ غيرُ منسجمينِ إلاّ هذين الاثنين... فاسْتَعَرَتْ بينهما نيرانُ الفِتَنْ...** وحَمِيَ وطيسُ القتالِ في القرونِ الوسطى... وكانَ الفوزُ أحيانًا لهذا... وأحيانًا لذاك حتى دَخَلَ المتحاربونَ القرنَ التاسعَ عَشَرْ فأخذ التساهلُ ينتصرُ على التعصبْ... وأخيرًا شقَّ قلبَه بخِنْجرِ العدلْ، وفَرَاهُ بسيفِ الرحمةْ... **مات التعصب...**

رابعاً: **بَعْثُ روحِ التعصبِ بقَالَبٍ سياسيّ**

ولكنْ واأسفاه كان موتُ التعصبِ إلى حينْ...أي إن روحَه عند خُروجها من جسمِهِ الديني... تقمصَّتْ بالجسمِ السياسيّ... **فعوضًا عن التعصبِ الديني الذي سَوَّدَ صفحاتِ التاريخِ في الأجيالِ الغابرة... ابتُلينا في أيامِنا بتعصبٍ سياسيٍّ أو دوليٍّ إذا شئتمْ!... لم نَرَ له مثلًا في التاريخِ بأسْرِهْ.....**فما هذه الحروبُ التي تعلِنُها الدولُ الأوربيةُ على الشعوبِ الضعيفةِ والصغيرةِ إلّا نتيجةُ التعصبِ الدوليِّ، نتيجةُ الفِكرِ الفاسدِ الذي تتمسكُ به الدولُ الكبرى.... **فإنكلترا تَعْتقدُ نفسها أصلَحَ مِن فرنسا وفرنسا أرفعَ وأعظمَ من ألمانيا وألمانيا أقوى وأحسنَ من الاثنتين...إلخ.**

خامساً: صورٌ من حركاتِ التعصبِ السياسيّ

وإذا راقبنا حركاتِ الدولِ ودرسْنا سياسَتَها وكشفْنا الحجابَ عن خفاياها واستعرضنا الحروبَ العديدةَ التي تهدمُ هيكلَ المجتمعِ الإنساني وقفنا حَيارى نتساءَل، أحقًا نحنُ في القرنِ التاسِعَ عَشَر، قرنِ التمدنِ والنورِ والمبادئِ الديموقراطيةِ والاشتراكيةِ والرحمةِ المسيحية؟ أحقًا نحنُ على بابِ القرنِ العشرين؟....التساهلُ الديني يشملُ الآنَ الدولَ الأوربيةَ بمعاملاتِها بعضِها مع بعضْ.... ولكنه لا يشملُ الشعوبَ التي يدعوها الأوربيونَ متوحشة. فالدول لا تتساهلُ مع هؤلاءِ المساكينِ الضعفاء بل يتساهلُ بعضُها مع بعض لأنها تُضْطَرُّ إلى ذلك وليس حبًا لمبدأٍ شَريفْ.... وكثيرًا ما تراها تُشهرُ الحروبَ على القبائلِ الضعيفةِ وتدعوها حُروبَ الإنجيلْ (حروبَ القاعدة....حُروبَ داعش....) وذلك كي يعتنق ((البرابرة)) الدينَ المسيحي كُرْهًا وجَبْرًا. هذا هو التعصبُ الديني الدولي..... هذه هي الاضطهاداتُ التي كانتْ تمارسُها الدول الأوربيةُ المسيحيةُ بعضُها على بعض والآن تمارسُها على ((البرابرة)) كما تزعم،..... والبرابرةُ قومٌ يشعرونَ ويتألمونَ مِثلَنا. هذه هي حروبُ شارلمان..... واضطهاداتُ الملِكة حَنّة الإنكليزية..... والملِكِ شارلْ الفرنسي....هذه هي مذبحةُ ليلةِ القديس برتَلماوس،..... فعوضًا عن حدوثِها في باريس وفي القرنِ السابِعَ عَشَر تحدثُ الآنَ في فيافي آسيا.... وصحارى إفريقيةْ..... وتُلولِ السودانْ.... وفي آخِرِ القرنِ التاسِعَ عَشَرْ..... يا لَلْعار! عبثًا يكتبُ العلماءْ.... ويندبُ المصلحون ويبحثُ الفلاسفة..... عبثًا أَتى السيدُ المسيحُ إلى الأرض.....

أما الدولُ المسيحيةُ بمعاملاتِها بعضِها مع بعضْ فلسنا نرى للتعصبِ الديني أثرًا بينها: فصارَ الكاثوليكُ بأمنٍ وسلامٍ في الجزرِ البريطانية،..... والبروتستانت آمنين على أنفسِهم في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا،..... واليهودُ لا خوفٌ عليهم من الأخطارِ والطردِ في أي بلادٍ حَلُّوها ما عدا الروسية..... وصِرنا نرى في مجلسِ اللوردات البريطاني البروتستانت والكاثوليك واليهودَ يجلسونَ جنبًا إلى جنب.

أما في الدولِ العثمانية فنرى الموظفينَ على اختلاف نِحَلِهم ومذاهِبِهم من المسلمين والمسيحيين والدروز. فالتساهل في الدولة موجود غير أنه بين الشعب مفقودْ..... لأنه حتى في هذه البلادِ الحرة الكاثوليك كطائفة لا يحبونَ البروتستانت.... والبروتستانتْ يكرهونَ الكاثوليك إلخ. وذلك في كل الأمم لا سيما في الأرض السورية. فلو كان بوسعنا نحنُ السوريين أن نضطهدَ ونشهرَ الحروبَ الدموية بعضُنا على بعض لفعلنا. ولكن الدولة لا تساعدُنا على الاضطهادِ الديني.

سادساً: عندنا ما هو أقبحُ من التعصب:

ويتابع الريحاني محاضرته قائلًا: وعندنا شيء أقبحُ من الاضطهادِ المكشوفِ وأضرُّ من الحروبْ. عندنا السياسةُ السِّرِّيةُ والأيدي الخَفِية. فكلُّ هذه المنكراتِ تتجهُ إلى غرضٍ واحد وهي أكبرُ باعثٍ على ابتعادِنا وانقسامِنا ومعاداةِ بعضِنا لبعض. هذه السياسة هيَ الُجبْنُ.... واللؤمُ.... والخيانة. .....والأيدي التي لا تَظهر مخالبُها إلا في الظلمةِ الحالكة يدعو عليها بالكَسْر كلُّ حرٍّ صادقٍ وكلُّ شجاع. ....هذه سياسةٌ سيئةٌ

الغايـة..... وَخِيْمـة العاقبـة.... وبسـببها يظـلُّ أبنـاءُ الأمـةِ الواحـدةِ منقسـمينَ منفـردينَ عاجزينَ عن العملِ مشمولينَ بالخُمولْ.... ومكتنفينَ بالجهلْ،.... فيتسلطُ عليهمْ شعبٌ آخر أو أمةٌ غريبةٌ فيبقَوْن أذِلاءَ جُبناءَ ما شاء الله.

أيها السوريون! نحن شعبٌ لا يتجاوز عدده ثلاثة ملايين نفس منهم مليونٌ مشتتٌ في أقطارِ الأرض فإذا وُجِد فينا خمسَةَ عَشَرَ حِزبًا أو مِلَّةً فماذا يا تُرى تكونُ عاقبةُ شقاقِنا وانقسامِنا؟

ألا يكفينا الضعفُ الذي يشملُنا بكونِنا شعبًا صغيرًا حتى نُبتلى بضعفِ الانقسامْ.؟.... وماذا تكونُ قوةُ كلِّ حزبٍ أو كلِّ طائفةٍ إذا شَرَعتْ تعملُ عملًا خطيرًا يستغرقُ الوقتَ الطويلَ والسهرَ والكدَّ ويستوجبُ تضحيةَ المالِ والنفوسِ وخيراتِ البلاد....

هذه الأمة الأمريكية يبلغُ عددُ سكانِها ما يُنِيْف على الثمانين مليونًا ومع ذلك لا نرى فيها أكثرَ من خمسةِ أحزابٍ سياسية. **أما الطوائفُ الدينيةُ فكثيرة ولكن لا شأنَ لها في الأمورِ السياسيةِ والوطنيةِ. قد قالتِ الحكومةُ لهذه الطوائفِ الدينيةِ ما معناه: لكل دينٍ حقٌّ البقاءِ ولا حقَّ لدينٍ أن يُبيدَ دينًا آخر بالقوةِ....**

لكلِ دينٍ حقُّ البقاء! فَكِّروا في ذلكَ وأبقُوا هذه الفكرةَ في حافظتكم.... ودولتُنا العثمانيةُ تنتهجُ نفسَ المنهج فالمسلمون يتساهلونَ مع النصارى ويسمحونَ لهم بممارسةِ دينِهم حَسَبَ طقوسِهم وتقاليدِهم. وقد وصلتِ الدولُ ولا سيما الدولةُ العثمانيةُ إلى نتيجةٍ حسنةٍ بفضلِ التساهلْ. **فَبِهِ تستميلُ الدولةُ الرؤساءَ والرؤساءُ قادةُ الشعبْ،** وكانتْ قدِ اتخَذَتْ هذه الخطةَ الدولةُ الرومانيةُ التي كانتْ تتساهلُ بوجودِ الأديانِ في الأجيالِ الأولى للمسيح. وقد وَصَفَ هذا التساهلَ المؤرخُ الشهير ((غِبُن)) بكلامٍ وجيزٍ مفيْد قال: ((**إن أنواعَ العباداتِ على اختلافِها كانتْ سائدةً في العالَمِ الروماني. وكان الشعبُ يعتقدها كلها صحيحة.... والفلاسفة يعتقدونها كلَّها خُرافية... والحكامُ يعتقدونها كلُّها نافعةً مفيدة...**)). هذا كلامُ فيلسوفٍ ومؤرخٍ مدقق. وهكذا انتشر التساهلُ وجَلَبَ على الشعبِ ليس فقط السلامَ والراحة بل الائتلافَ الدينيَّ والجامعةَ المدنية، فالحاكمُ هنا رأى في الدياناتِ المختلفةِ شيئًا مفيدًا وقال في نفسه: **فَلْنَدَعْهُم يختلفون ما دام اختلافُهم يؤيدُ سلطَتنا ويعظِّمُ شوكتَنا ويرفعُ مجدَنا.**

إن الدولةَ العثمانية تتساهلُ مع النصارى ولا أظن أحدًا منكم يشكُّ في تساهلِ المسلمينَ مع النصارى ولكن عجبًا كيفَ أن النصارى لا يتساهلون بعضُهم مع بعض. الآخرونَ يتساهلونَ معنا ونحن لا نتساهلُ مع إخوانِنا في الوطنِ الواحد ولا نواري اختلافاتِنا ولا نتناسى ضغائِنَنا عندَ مصلحةِ أمتِنا. ولربما قال بعض اللاهوتيين: كيف نتساهلُ مع مَن لا صحةَ لدينِهِم ولا حقَّ في معتقدِهم؟ فأقولْ: إن التساهلَ قائمٌ على الخلافْ ولو لم يكنْ ذاك لما تساهلتِ الحكومةُ مع الطوائفِ المخالفةِ لمذهبِها. إن الغايةَ القصوى من غاياتِ الحكومةِ المتعددةِ هي أن تُحاميَ عَنْ كلِّ مبدأٍ صحيحٍ وتكفلَ لكلِّ رجلٍ حريةَ القولِ والفعلِ إذا لم تمسَّ حريةَ غيره.

الله لا يفضل أمةً ولا طائفةً على أخرى. الله لم يَصْطفِ له في الأرضِ شعبًا خاصًا. ويخطئُ من يفهمُ أن الله اختارَ الإسرائيليّين ليعضُدَهم ويَهديهُم دون غيرهم. فلو كان هذا هو المفهومُ لبقيتْ عجائِبُه فيهم بعدَ مجيءِ المسيحِ أيضًا. ولكن عدلَ الله

أرفعُ من أن يَحصُرَ حِكْمَتَهُ بِذُرِيِّة دون غيرها. ولذلكَ قال: اذهبوا وبَشِّروا كلَّ الأمم. إنَّ مَن سارَ حَسَبَ الشرائعِ الطبيعيةِ فَعَمِلَ الخيرَ وابتعدَ عنِ الشرِّ كما يرشِدُه عقلُه، ولو لم يتوصلْ إلى معرفةِ الدينِ الحقيقي، فإنه لا يهلِكْ. لأن اللهَ رؤوفْ ورأفتُه لا مُنتهى لها. وما الدينُ التوحيديُّ إلا دينٌ واحد فكلنا نتَّحِدُ بعبادة الرب وكلنا نعبُدُ إلهًا واحدًا.

سابعاً: **التواضعُ المَعرفي**:

وقولُ القائلِ ((لا أدري))، خيرٌ من أن يُقالَ له أخطأتْ. إن السيوطي كتبَ فصلًا فيمن سُئل من العلماءِ عن شيء وقال: لا أدري، فذكَرَ عددًا من مشاهيرِهم كالأصمعي وابنِ دُريدٍ والأخفشِ وأبي حاتمٍ وغيرِهم من أهل هذه الطبقة. قال الزعفراني: كنت يومًا بحضرة أبي العباسِ ثَعلبْ فسُئل عن شيء فقالْ: لا أدري. فقالَ له بعضُ من حَضَر أتقولُ لا أدري وإليك تُضرب أكبادُ الإبل؟ وإليك الرحلةُ من كلِّ بلد؟ فقال: لو كان لِأُمِّكَ تَمْرٌ بقدرِ ما لا أدري لاسْتَغْنتْ. وسُئل الشعبيُّ عن مسألة فقال: لا أدري . فقِيل له: فبأيِّ شي تأخذ رِزقَ السلطان؟ فقال: لأقولَ فيما لا أدري لا أدري.

فَلنتساهل إذنْ في الدين إذ إننا لا ندري. والذي يَدَّعي المعرفةَ هو الذي لا يدري. فليبقَ كلٌّ على دينِهِ إذا دلَّه عقلُه على صِحَّته بعدَ التنوّرِ الكافي والترفُّع عنِ الأهواء. ولا ينتظرنَّ أحدٌ رؤية دينٍ واحدٍ مقبولًا عند الجميع كما يرى الحقائقَ الرياضية والعِلمية مثلًا....

ولْنَجمَعْنا الوطنيةُ إذا فَرَّقنا الدينُ والله لا يريد التفريق.

لا تأخذوا كلامي على غير مأخذهِ ولا تَحْمِلُوه على غير مَحْمِلِه وتقولوا: واأسفاه على من لا يعرف الدين الصحيح. فإنْ قُلتم ذلك فأنا أُنشِد معكم قائلًا: واأسفاه على العالَمِ بأسرِهِ ما أكثرَ الضلالَ فيه! أصغُوا إذا شِئتم لأَقُصَّ عليكُم رؤيا رأيتُها ذات ليلة وكنتُ قبل ذهابي إلى الفراشِ أترصَّدُ النجومَ والكواكبَ وأستطلعُ طلعةَ البدر. وقد حدثَ لي ذلك لما كنتُ في جبل لبنان العزيز الذي كثرت فيه الخُرافات وتعددتْ بين سكانِهِ البسطاء المذاهبُ والديانات. وتتلخص الرؤيا بخصومات رجال الدين في السماوات العُلى.

ثامناً: **إقحامُ الدين في كل مَنهج**:

لقد أَخَذَ الدِّينُ منا كُلَّ مَأخَذْ، فَنَخْلِطُهُ بكلِّ أشغالِنا ونَتَّخِذُهُ حُجَّةً بكلِّ أعمالنا. فالتجارةُ عندنا دينية.... والجمعياتُ دينية..... والنُّزُلُ دينية والبِقالَة دينية وقِسْ على ذلك.....وهذا يبعثنا على الانقسام.

فَلْنتناسَ الديانةَ في التجارة وَلْنَنْبُذِ التِّجارةَ في الاجتماعاتِ السياسيةِ والأدبية.... ولنسجُدْ لِربَّنا ونَحْمَدْهُ-إذا كان لنا ربٌّ غيرُ المال- غيرَ مُفترقين إلا في المعابد. وإني لَأعجبُ من التناقضِ الذي يخالطُ أعمالنا وعقائدنا. فمن وجهٍ نقول أن الدين هبط من وراءِ الغيوم وهو مقدَّس،..... ومن وجهٍ آخر نستعملُ الدينَ لتنفيذِ مآربِنا الدنيئةِ

فنسلبُ منه القداسةَ وننزعُ عنه الاحترامَ بإدخالنا إياهُ في الدوائرِ المدنيةِ من سياسيةٍ وتجارية.

هل أُوحِيَ الدينُ لِيقِينَا من الفاقةِ ويَكْفُلَ لنا المَسرّةَ واللذةَ في هذا العالَم؟

هل أُوحِيَ الدينُ لِنتخذَهُ عَضُدًا لنا بتحقيق أمانينا الزمنيةِ التي لا حَدَّ لها؟

هل أوحِيَ الدينُ لِيساعدَنا على الَجشَعِ والطمعِ والتحاملِ على أبناءِ جنسِنا والازدراءِ بهم؟

هل أوحي الدينُ ليكونَ سببًا للخصامِ والشقاقِ والقتال؟

هل أوحي الدين لتتسلحَ به فئةٌ من الناسِ على فئةٍ وتَسُلَّهُ سيفًا على كل مَن لا يُقِرُّ بالسلطةِ لها؟

هل أوحيَ الدينُ لتأسيسِ الدواوينِ التفتيشيةِ التي تألَّفتْ في روما وإسبانيا وأَرْعبتِ العالَم بظلمِها وجرائمِها الفظيعة؟

هل وُجِدَ الدينُ لبعضهم وسيلةً لإفسادِ الهيئةِ البشرية؟

لو نظرَ اللهُ كما ينظرُ البشر إلى نتيجةِ وحيهِ لما كَلَّم الأنبياء. ولو نظرَ إلى أن عاقبةَ الدينِ الذي أنزلَه ستكونُ الاضطهادَ والطردَ والحروبَ لكان أبقاه عنده في السماء ولكن الله....الله أعلم.

الدينُ إما مُوحىً وإما غيرُ موحَى. إما مُقدسٌ وإما غيرُ مقدسْ. فإذا كان موحىً ومقدسًا فلا يحقُّ لنا أن نتخذَه وسيلةً لتحسينِ أشغالِنا التجاريةِ، وتنفيذِ غاياتِنا الشخصية. فنُلْحِقَ بأمتنا الضررَ الجسيم.... إذ نكونُ حَجَرَ عَثْرةٍ في سبيلِ الجامعةِ التي يجبُ أن تجمعَنا كسوريين والتي نحنُ بحاجةٍ كلِّية إليها الآن.... أما إذا كان الدينُ غيرَ موحَى وغيرَ مقدسٍ فأرى، من قبيلِ الحِكمة، ألاَّ نتمسكَ إلا بالجيدِ منه ونَنبذَ الباقي ظهريًا نَبْذَ النواة..... لكن الدينَ مقدسْ ولذلك يُقدِّمُ له الشعبُ الاحترام.

لماذا نستخفُ بالدينِ ونتخذُه ألعوبةً نتلهَّى بها في الشوارعِ والحوانيتْ؟.... نحن بإخراجِنا الدينَ من الكنائسِ لغايةٍ عالمية نُرذِلُه ونُجدِّف عليه.... ومن التعصبِ الممقوتِ أن نميزَ كلَّ حانوتٍ وكلَّ بيتِ تجارةٍ وكلَّ جمعيةٍ بدينٍ مخصوصٍ فنقول: هذا التاجرُ ماروني.... وذاك الطبيبُ أرثوذكسي.... ما هذه الحالة التي وصلنا إليها؟..... أينقصُنا شيءٌ إلا أن نضيفَ إلى أسمائنا أسماء طوائفنا ونقول: زيد الماروني وعُمَر الأرثوذكسي والتجار البروتستانت. لكنْ أيٌّ مِن هؤلاءِ التجارِ المستقيمين يبيعُ سِلَعَهُ وسُبْحَه ودبابيسَه لِقِدّيسينا المكرَّمين؟.... أيتعاملُ التاجرُ الأرثوذكسيُّ مع مار متري؟..... أيتعاملُ الماروني مع مار مارون؟.... وعندنا الجرائد المارونية.... والجرائد الأرثوذكسية..... بل عندنا المطاعم المارونية.... والمطاعم الأرثوذكسية. فأي منها نزل طعامها من السماء؟ وهل يريد القديسونَ أن نُمجِّدَهم بالكُبَّة والهَريسة والمُجَدَّرَة؟ عندنا الجمعياتُ الخيريةُ المارونيةُ والأرثوذكسيةُ والكاثوليكيةْ وما ضَرَّهم لو كانتْ كلُّها جمعيةً واحدةْ- جمعية خيرية سورية؟

ونارٍ إن نفخْتَ بها أضاءَتْ ولكن أنتَ تَنفخُ في رمادِ

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حَيًّا ولكنْ لا حياةَ لمن تُنادِي

وهذه الحالة تَعْتورُ كلَّ أشغالنا وحِرَفنا.

تاسعاً: **متى تزولُ الشقّاقاتُ الدينيةُ ويُداسُ التعصبُ تحتَ نعالِ المدنيَّة؟**

متى نؤلف جمعية التساهلْ..... ونبني كنيسةَ التساهلْ..... ونُشَيِّدُ مدرسةَ التساهلْ..... ونؤسسُ جريدةَ التساهلْ.... ونَفتحُ نُزُلَ التساهلْ..... وتَصيرُ أعمالُنا كلُّها تساهلًا بتساهلْ؟ متى تشملُنا هذه الحالةُ السعيدة؟

أَقترحُ على جرائدِنا العربية، في الثغرِ خصوصًا وفي العالَمِ العربِّي عمومًا- إذا كان صوتي هذا الضعيفُ يصلُ إليهم- أن تَنشرَ إعلانًا بأحرفٍ ضخمةٍ كبيرة عن التساهلِ الديني وأنه يُعطى بلا ثمن.....

ومن أرادَ أن يَقتنِيَهُ ويعملَ به فَلْيقرعْ بابَ ضميرِه فهوَ البائعُ وهو الشاري، وهو الواهبُ وهو الموهوبْ.

التساهلُ أيها الشيوخُ الأجلّاءْ..... التساهلّ أيها الشُّبانُ الناهضونْ.... التساهلُ أيها الصِّحافيونَ والأطباءُ والتجارْ. التساهلُ أيها السوريونَ الأحبّاءْ. التساهل! لو كان لي ألفُ لسانٍ وتكلمتُ من الآنَ إلى يومِ الدينِ لما عَييتُ من تَردادِ هذه اللفظةِ العذبةِ السهلةِ اللطيفةْ. لفظةٍ كَرِهتْها القرونُ الوسطى وكَلِف بها القرنُ التاسَعَ عَشَر. لفظةٍ عززتْها الجمهوريةُ في هذا الجيلْ. لفظةٍ انفتحتء لها قلوبُ المتمدنينَ المخلصينَ لأبناءِ جنسِهم وتأهلتْ بها الضمائرُ الحرةُ والعقولُ الصحيحة.

لفظُةٍ طِيب شَذاها يملأُ الفضاءَ وذَكاء عَرْفِها يُنعِشُ الصدور. هي أحسنُ وألطفُ وأبدعُ وأجملُ وأرفعُ وأسهلُ لفظةٍ في معاجمِ اللغة.

التساهلُ هو أساسُ التمدنِ الحديث وحجرُ زوايةِ الجامعةِ المدنيْة.

التساهلُ شدَّدَ عَزمَ الأحرارِ فبرزتْ من عقولِهِم أسمى الأفكار.

التساهلُ أوجدَ الترقيَ والتقدمَ في كلِّ فروعِ العلمِ والدينِ والفلسفة.

التساهلُ أَيَّدَ سلطةَ الضميرْ ومَحَقَ السلطةَ التي لم يُنزلِ اللهُ بها من سُلطان.

التساهلُ أعطى كلَّ امرئٍ حقَّهُ فتمتَّعَ به ومارسَهُ بحُرِّيةٍ واستقلالْ.

التساهلُ وَضَع حدًّا للاضطهاداتِ الفظيعةْ، وكَسَرَ السيفَ الذي استعملتْهُ الدولُ لاستئصالِ شأْفةِ مَنْ خالفها بالمَذهبْ.

التساهلُ جعلَ كلَّ رجلٍ صحيحِ العقلِ والجسمِ أهلًا للوظائفِ في الدولةِ وأهلًا للانتخابْ.

التساهلْ قال للكنيسة: أنتِ سلطانة وقال للإنسان: أنت أيضًا سلطان بذاتِك. وكلٌّ له حدود وأينما وُجِدَتِ الحدودُ كانتِ الحقوق وأصبحَ الأمرُ خارجًا عنها ظلمًا.

التساهلُ يزيدُ الإنسانَ غبطةً وسعادةً ونجاحًا في الحياة الدنيا ولا يَضِيرُه في الآخرة.

التساهلُ هو الطريقُ الوحيدُ الذي مِنْ تحتهِ تَجري الأنهار وعن يمينهِ ويسارِه الأشجارْ. طريقٌ يَدِرُّ لبنًا وعسلًا. طريقٌ مُستوٍ مُستقيمْ لا يَميلُ بنا عن رَوْضِ السماء.

عاشراً: **التساهلُ في الكتبِ السماوية**:

التساهلُ معنىً أصيلٌ لا ينكرهُ الإنجيلُ ولا القرآنْ.

((من لَطَمَكَ على خَدِّكَ الأيمنْ فحوِّلْ له الأيسر. من أرادَ أن يُخاصِمكَ ويأخذَ ثوبَكْ فَدَعْ له رداءَكَ أيضًا. من سَخَّرَكَ مِيلًا فَسِرْ معه اثنين)) (متى65و40و41)

((إن الله لا يحُابي بالوجوه فكلُّ رَجلٍ من أيِّ أمةٍ كان يصنعُ الخيرَ ويَكْرهُ الشر فهو مقبولٌ عند الله)). (بطرس الرسول).

((اِفْعَلوا بالغَيْر ما تريدونَ أن يَفعَلَه الغَيرُ بِكُم)) وهذه الآيةُ مُنْزَلَة. هي الآيةُ الذهبيةُ الفلسفيةُ. هي كلُّ الدينِ وكلُّ الأدبِ وكلُّ الشريعةِ وكلُّ العدلِ وكلُّ الفضيلة.

((إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُم عندَ رَبِّهم ولا خَوفٌ عليهِم ولا هُم يحزنون)) (سورة البقرة).

((من أسلمَ وجهَهُ لله وهو مُحسِنٌ فَلَه أَجْرُهُ عندَ رَبِّهِ ولا خوفٌ عليهِم ولا هُمْ يحزنون)) (سورة هود).

من أسلمَ وجهَهُ لله وهو مُحسِنٌ (ماقال وهو مسلم أو مسيحي) فَلَهُ أجرهُ عندَ ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. ما أجملَ هذه الآيةَ القرآنيةَ وما أشرفَ تلكَ الآيةَ الإنجيليةَ التي مَرَّ ذكرها.

إن هاتين الآيتين ذهبيتان عظيمتان. إني أَهَبُكُم كلَّ الكُتبِ المقدسةِ بهاتين الآيتين.

((اِدفَع بالتي هي أحسنُ السِّيئةْ)) (سورة المؤمنون) أليس هذا هو التساهل؟!

((لاتُجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنْ)) (سورة العنكبوت) أفي هذه شيء من التعصب؟

التساهلُ هو الطريقُ وهو الحقُّ وهو الحياةُ وهو روحُ الله. هو أولُ درجةٍ في سُلَّمِ العُمران وآخرها. هو الألف وهو الياء.

التساهلُ هو الباب. ومَنْ يَدخُلْ فيه لا يَهلِكْ. فَلْندخُلْ فَلْندخُلْ!

حادي عشر: **تذييل**

كانت هذه أولَ خطبةٍ للريحاني بالعربية وقدِ انتشرتْ في سورية ومصر - وأميركا وقَرَّظتْها مختلِفُ الجرائدِ والمجلاتْ.

وقد طُبِعتْ في نيويورك في أيار 1901وقَدَّمَ لها بما يلي: طَبعتُ هذه الخطبةَ لاعتقادي أننا بحاجةٍ كُلِّيةٍ إلى التساهلِ الديني فَأَمَلِيْ أن تُصادفَ من المتساهلين استحسانًا ومِنَ المتعصبين قبولًا تكونُ نتيجتُه الارتياحَ والاستحسانَ على ما أرجو، فيزولَ إذ ذاك التعصبُ ويسودَ التساهلُ ويَبرزَ بعد ذلك شعبُنا السوري إلى عالَم الوجودِ قائمًا على صخرةٍ لا تَقوى عليها نيرانُ الجحيم.

وطُبعتْ ثانيةً في بيروت في نيسان 1910 فَقَدَّمَ لها بما يلي: عَشْرُ سنواتٍ مضتْ والتساهلُ الديني لا يزالُ من الأدويةِ الناجعة. وفي ذلك دليلٌ على أن داءَ التعصبِ الدفينِ لا يزالُ متأصلًا في الصدور. وقد قال لي أحدُ كبارِ الاتحاديين أن الجمعيةَ تودُّ لو انتشرتْ هذه الخطبةُ في كل أقطارِ المملكة. فلتتكرمِ الْجمعيةُ وتُترجِمها إلى التركية. أَبدلِوا بالشعب السوري في الخطبةِ الشعبَ التركي ولا تَخشَوُا الْلَومَ والتَّثْرِيب. فإنَّ عناصرَ هذهِ الدولةِ، كلَّها كالعنصرِ الذي عالَجْتهُ. وإن ما يَئِنُّ منه المسيحيون لأشدُّ وطأةً عند المسلمين. أَيُسقِمُنا التعصبُ ويُجهزُ علينا التَّمْويْه؟ اِتقُوا اللهَ أيها الناس. فقد صاحَ بِكُمُ الأحرارُ الأصفياء "عُودوا إلى كُتبِكمْ" ظنًا منهمْ أنكمْ تعودون إلى الَحسَنِ السَّمْحِ السامي مِن آياتها. فخابَ ظنُّهم. لذلك أقول ارفعوا أعلامَ الوطن ولا تعودوا إلى كُتبكم في غير المعابدِ لأنكمْ تَعوَّدتُم أن تُسرعوا إلى ما خُطَّ فيها من آياتٍ فتفسِّرونه بما لا يقتضيه حالُنا اليومَ بل ما لايُجيزه!

عودوا إلى ضميركم، إلى حكمةٍ موروثةٍ فيكم، وساعِدوا هذه الدولةَ الجديدةَ فتساعدَكُم. ساعدوها أيها الرؤساءُ والأسيادُ في بثِّ روحِ التساهلِ الديني والقومي في الناس. وسيفٌ يُرفع عَلَيَّ، شرٌ من سيفٍ أرفعهُ على إخوان لي في الوطنية. وشَرُّ الاثنين أيها العثمانيون سيفٌ يُرفع علينا أجمعين.

وقَدَّمَ للطبعة الثالثة بالكلمة التالية مؤرخة كما يلي الفريكة 31 أيار 1923

والسيفُ اليومَ واأسفاه! علينا أجمعين... إلا أن صاحبَ السيفِ غيُر ذاك الذي حاولَ قبلَ خمسَ عَشْرةَ سنة تَتْريكَنا واستعبادَنا... صاحبُ السيفِ اليومَ مهما كانَ من أمرِهِ وكيلٌ مسؤول- مسؤول أمام شرفٍ في تقاليدِه... ومَجدٍ في تاريخه... ونبوغٍ في آدابه.... ومع ذلك فهو لا يُساعدنا إذا كُنا لا نساعدُ أنفسَنا، أو لا نُحْسِنُ التعاونْ....

والتعاونُ لا يكونُ بغير سيفٍ بَتَّار نَسْتَلُّهُ على التعصبِ الخبيثِ الذميمْ،... التعصبِ الفظيعِ الأثيمْ... بل على التعصباتِ كُلِّها جَمعاءْ.... على التعصبِ الديني الكافِرْ،.... والتعصبِ المذهبيِّ الفاجِرْ،.... والتعصب العنصريِّ الخَؤُون.... وإن سيفًا على هذه المآثِم كلِّها لَهُوَ آيةُ الحقِّ والعدلِ والإخاءْ.

أقولُ وَحَقًّا ما أقول إن الخَلاصَ في يَدِنا.... في التساهلِ الديني، وفي الاتحادِ الوطني المَبنِيِّ على الاشتراكِ بالمصلحةِ والاشتراكِ بالرَّزِيَّة. أقول، وحقًا أقول، إن في اتحادِنا. مصلحة راعي الانتداب ومصلحتَنا... أَجَلْ إن اتحادَنا الوطنيَّ المجردَ عن كلِّ صِبغةٍ مذهبيةٍ أو طائفيةٍ لَيَحْمِلُ الانتدابَ على احترامِنا واحترامِ مَطالبنا. فيفيدُ إذ ذاك ويَستفيد.

ثاني عشر: **تعليق ختامي**

لقد وافى الريحانيَّ الأجلُ... ومضى أربعةَ عَشَرَ ومئةُ عامٍ على خُطبته هذه ((التساهلُ الديني)) وما زلنا في أشدِّ الحاجةِ إلى مضمونها...

فالتعصبُ اليوم يُعْمي بَصيرتنا... ويُصِمُّ آذاننا... ويُفَطِّر قلوبَنا...على الصعد الدينية والطائفية والعرقية والذكرية والأنثوية والطبقية...

العربي وسطي بحكم موقعه الجغرافي... فهو لا يستطيع أن يكون شمالياً ولا جنوبياً ولا شرقياً ولا عربياً.

فالتعصبُ اليومَ ليسَ أقلَّ مما كانَ عليه في القرنِ الماضي.

التعصب اليوم يُمزِّقنا... يُدْمِينا... يُبْكينا.

وليس شيءٌ أنجعَ من دواءِ التساهلِ لهذا السرطانِ الإجتماعي السياسي الخبيث...

وإننا لنتخيل الريحاني، لو كان حيًا، لَحَمَلَ على التعصبِ في هذه الأيام... أشدَّ مما حَمَلَ عليه في الماضي.

الوسطية والاعتدال هبة الله للإنسانية چ ﮬ ﮭ ﮮ ﮪﮫ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕﯖ
ﯗ ﯘ ﯙﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ □ □ □ □ □ □□ □
□ □ □ □□ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ ﯦ ﯧ ﯨ □ چ [سورة النور: 35].